عيسى بن عبد الوهاب القطامى

١٢٨٧ – ١٣٤٧ هـ

من مصادر هذه الترجمة الفاضل يوسف أحد أبناء المترجم وبعض أصدقاء الفقيد ، واللهجات من محفوظات الأديب عبد المنعم عيسى

ولد فى الكويت ، وكان صغيراً حين مات أبوه عنه ، فأدخلته والدته الكتاب فتعلم القرآن والكتابة وعمره تسع سنوات ، وخرج من الكتاب فركب البحر فى أول سفرة مع خاله ثنيان الغانم ـ والد الوجيه الحاج ثنيان الغانم ـ وبعد ذلك مع خاله إبراهيم ، فأخذ معرفة البحر عنهما وسنه أربعة عشر عاما ، ثم سافر بعد هذا دليلا خريتاً مستقلا فى سفينة أحمد الناصر ، واستمر يجوب البحار والشواطىء ، فتارة الهند ، وأخرى سواحل أفريقية ، ومرة اليمن ، مطبقاً دراسته التى استفادها من الربابنة الذين عمل معهم ، وما يقرأه من كتب المتقدمين ، وما حصل بيده فى ذلك الوقت فى هذا الفن ، على العمل . ولتقصيه وتوسعه فى البحث ، واستعداده لذلك ، انفرد بين الربابنة الماهرين بالميزة ، فطلب منه زملاؤه أن يؤلف فى البحر كتاباً يكون لهم معلماً ومرجعاً . فصدع بما طلبوه ،

ما أن افتتح بيت الكويت حتى أخذ الكثيرون من رجال الكويت يفدون إلى مصر لزيارتها فيجدون من بيت الكويت كل ما من شأنه أن يسهل هذه الزيارة ومعرفة مصر معرفة صحيحة وتقديم كل مساعدة لهم فى نجاح رحلتهم .

وهكذا استطاع البيت أن يسهم فى تنمية الروابط بين هاذين القطرين من ناحية الآباء كما استطاع توثيقها من ناحية الأبناء . وهل يستطيع أحد أن ينكر ما لهذا التعارف الوثيق من نتائج طيبة لأبناء أمة واحدة ؟ .

وإن من دواعى الفخر لبيت الكويت أن استطاع القيام بكل ما كلف به من الدوائر الحكومية فى الكويت وبالأخص دائرة المعارف ، فى تزويدها بما تحتاج إليه من مصر من كتب وغيرها . كما استطاع أن يسهل للبعثات العلمية التى تقصد الكويت للاسهام فى نهضتها الحالية ، وسائل السفر إلى هناك ، وأصبح معتمداً من السلطات المصرية ، كمركز للكويت مختص بجميع شئونها الثقافية . والبيت لا يحجم فى جميع المناسبات عن أداء كل ما يطلب منه سواء بصفة رسمية أو غير رسمية ما دام فى أداء هذا العمل أو ذاك خدمة وطنية للبلاد .

وقد أعار بيت الكويت الحياة الأدبية كثيراً من اهتمامه ، سواء بين أبنائه الطلبة أو غيرهم من الكويتيين فقد اشترك الشباب الكويتى المثقف فى تحرير نشرته التى احتلت مكانها اللائق فى المجتمع الكويتى . وشجع البيت الأدباء الكويتيين على الانتاج الأدبى ، وأبدى استعداده لنشر ما يقدم له من كتب تستحق النشر ، مادام فى نشرها مساهمة فى النهضة الأدبية المرتقبة للبلاد .

والآن وقد بدأت ثمار البيت تنضج ، وأصبح على أبواب تخريج فريق من أبنائه . فاننا لنغتبط أشد الغبطة لما استطاع البيت أن يحققه لوطننا العزيز من رسالة . . وإننا لعلى يقين أن هذا الشباب المتحفز الذى ورد مناهل العلم بمصر وتسلح بسلاح المعرفة ، سيحمل عن جدارة عبء المستقبل وسيحقق الكثير من الغايات ، ويسير بالركب إلى حيث نريد ، ويريد كل مصلح يتطلع إلى حياة تتحقق فيها العزة والسعادة والمساواة بين الجميع .

واندفعت همته من جديد تحقق وتدقق فى هذا المجال . ولم تمض مدة حتى أخرج كتابه الذى سماه « دليل المحتار فى علم البحار » . . هذا الكتاب الذى ما يزال ولن يزال المرجع لكل ربان عربى يمخر البحر بسفينة يتكلم أفرادها بلغة الضاد . وإذ نحن فى معرض الحديث عن هـــذا الكتاب ، فإننا نهيب بأبناء الراحل ، أن يعيدوا طبع كتابه هذا ويحسنوه لغة وشرحا واستدراكا ، فإن طبعته قد نفدت منذ زمن ، وأصبح الربابنة يطلبونه بأى ثمن كان ، وإذا لم يريدوا طبعه على نفقتهم — وهم أغنيا والحمد لله — فليقدموه للناشرين ، وبذلك يسدون منفعة للناس ويحيون تراث والدهم الكريم .

ومما يذكر أن بعض الحكومات المجاورة قد اهتمت بهذا الكتاب واستعانت به فى شئونها البحرية . كما إن للمترجم كتاباً آخر خاصا بالغوص والمغاصات ، وهو دليل لمواقع اللؤلؤ فى الخليج .

نعود فنذكر ما اتصف به هذا الربان الأديب : كان عذب الحديث ، خفيف الظل ، لا يمل مجلسه ، يسبيك بحديثه الطلى ، ونكاته ودعاباته ، وكان يكره الثقلاء والعابسين ، ويبسم للدهر إذا قطب ، وقد اشتهر بالحمية والمروءة ، وموقفه الشهير فى حادثة قتل سيف بن سيف الرومى التى أوردها الأستاذ الرشيد فى تاريخه معروف ، فهو الذى أهاب بعم القتيل المرحوم شملان آل سيف أن يسفر سفينته لطلب الجناة . وكان هو يتزعم من استقلها . كما دفع أخاه المرحوم عبد العزيز للذهاب بالباخرة إلى بندر لنجة حيث قبض على الجناة هناك بعد معركة حاولوا أثناءها الهرب . فبحمية هذا الغيور وأعوانه والوقفة التى وقفها أسد الكويت الشيخ مبارك حينذاك ، استطاعوا أن يأتوا بالقتلة مكبلين مع أنهم ليسوا كويتيين ، فلم يذهب دم القتيل هدراً .

وقص لى أحد الإخوان مثالا من مروءته قال : كنت صديقا لأسرة غنية . واتفق أن ابن كبير الأسرة أراد السفر . ورأى أن يبرنى لأنى كنت عاطلا عن العمل . فطلب منى أن أقوم بعمله التجارى أثناء سفره . فقمت بذلك إلى أن رجع من سفره . فاستلم عمله . ولم أطلب منه أجراً حياء منى وللصداقة التى تربطنى بالأسرة ومضى وقت على ذلك إلى أن طلب منى المرحوم عيسى بن قطامى أن أساعده مراقبا على سفينته التى يبنيها على الشاطىء والتى سماها « الحضان » . وبعد فترة قال لى : لا أعلم كم أعطاك فلان لمدة عمـــلك فى محلهم ؟ . قلت : إنى لم أطلب منهم شيئاً ، وهم كذلك لم يدفعوا لى شيئاً . فسكت كالمضمر أمراً فى نفسه فقد تحقق عنده أن خجلى يمنعنى أن أطلب منهم شيئا لقاء عملى وأنهم نسوا الأمر لكثرة أعمالهم . ومضى يوم وإذا بى أستلم من تلك الأسرة مبلغـــا من المال مع اعتذار رقيق . وقد تبين لى فيما بعد أن الفقيد اتصل برب الأسرة قائلا : إنى أريد أن أعطى فلانا شيئا مقابل عمله عندى فكم أعطيتموه عندما عمل لديكم ؟ . فقال الرجل : لا علم لى بذلك . فإن هذا الأمر عند ابنى . وجاء الإبن . فلما سأله والده قال : لقد سهى على ولم أعطه شيئا .. وبهذا الأسلوب استطاع أن يخرج حقا كاد ان يضيع بين النسيان والحياء .

ويطول بنا البحث لو تتبعنا ماجرياته وأحواله ، على أننا نود أن نطلع القراء على ناحية فيه لايستطيع أحد أن يجاريه بها ، تلك هى ملكة التقليد فى اللهجات المختلفة . فإن من يسمعه يحاكى إحدى اللهجات العربية حين ينفرد بإخوانه الذين تزول بينه وبينهم الكلفة . يجزم بأنه مواطن عريق فى كل بلد من هذه البلاد . ويسرنا أن نورد مثالا لتلك « مواليا » ننشر جزءاً منه فى صفحة من هذا العدد .

وللمترجم اليد الطولى فى عمل التواريخ بأعجاز الأبيات أو بكلمات مختصرة . وقد كان لصوغ هذه التواريخ شأن فى ذلك الزمان .

وإننا لنتساءل اليوم ، لو أن مثل هذا النابغة نشأ فى بيئة أكثر غنى بوسائل الحياة الأدبية والعلمية . وفى زمن أتيحت له فيه الفرصة للدراسة العلمية الحقـــة . ترى أى تراث يترك . وأى أثر لا يمحى يبقى له على الزمان . . أظنه أدرك ما نتساءل عنه عندما نظم أبياته التى يقول فيها :

لو علموني هـــلى فى مصر أو بيروت
لاصنع عجايب لهم تذكر قبل ما موت

وافته المنية بمسقط (عاصمة عمان) سنة ١٣٤٧ هـ .

شرقاوى